دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مفهوم " الوطن " في الفكر السياسي العربي الحديث
المصدر:	شؤون عربية
الناشر:	جامعة الدول العربية - الأمانة العامة
المؤلف الرئيسي:	نجار، شكري
المجلد/العدد:	ع 5
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1981
الشهر:	يوليو - رمضان
الصفحات:	7 - 15
رقم MD:	49968
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الوحدة العربية ، الفكر السياسي ، المواطنة ، العالم العربي ، القومية العربية ، اللغة العربية ، جامعة الدول العربية ، النظم الاقتصادية ، النظم الاجتماعية ، المفكرون السياسيون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/49968

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مفهوم « الوطن »
في الفكر السياسي العربي الحديث

د. شكري نجار
محام وباحث يكتب في صحيفة لوريان لوجور اللبنانية

نبتدىء هذه الدراسة مع انتصاف القرن التاسع عشر ، ونقف بها في قبيل انتصاف القرن العشرين ، وعلى التحديد عام ١٩٤٨ ذلك أن تلك السنة وأحداثها فتحت صفحة جديدة من كتاب الحياة العربية وحصل فيها ما حصل من تحول كبير في المجاري الفكرية . هذا فضلاً عن ان دراسة الفكر السياسي بعيداً عن ساحة الصراع وعن نار المعارك وغبارها يكون افضل للباحث وللحقيقة العلمية على السواء . ولا ريب ان المفكرين العرب قد عنوا قديماً بدراسة الانسان العربي الاجتماعي ، على الطريقة الارسطاليسية ، كما ان ابن خلدون قد اغنى ، بالفعل ، تلك الدراسة بطرافة واقعية . ولكن ابن خلدون كان لا يزال قيد الاكتشاف في اخر القرن التاسع عشر ، بل اكثر من ذلك كان ايضاً قيد الوضع في حيّز التطبيق . ولقد حاول الفقه طوال قرون ان يكيّف القواعد وفقاً للواقع ، والواقع وفقاً للقواعد . وفي هذا مزيد من الشعور الجماعي بالجماعة (اي بالوطن) ولكن الفقه نفسه قد اضاع بعض طوقه مذ اقفل باب الاجتهاد .

واذا كان صحيحاً ان فكرة الجماعة ، وبالتالي فكرة الوطن عند العرب قد اكتست لوناً نظرياً خلال زمن طويل لان المقاومة قد اتخذت شكلا دينياً خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر وما بعده ، الّا ان فكرة « المجتمع » بالذات ظلت الى امد طويل قبل بزوغ فجر النهضة الحديثة ، آخذة بعين الاعتبار جميع المفاهيم والعادات الشائعة والبعيدة عن الروح العلمية .

والواقع ان رفاعة رافع الطهطاوي هو أول من اهتم بفكرة « الوطن » وذلك في « كتاب مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرّية » . وقد دعم فكرة الوطن بآيات كريمة واحاديث شريفة واقوال قديمة وكتب فيما كتب« وارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبّه من اهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففي الحديث حبّ الوطن من الايمان . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال عليّ سعادة المرء ان يكون رزقه في بلده . وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له افدني فقال اذا اردت ان تعرف وفاء الرجل من عهده ومكارم اخلاقه وطهارة مولده فانظر حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه . ويكفي حبّ الوطن ان كرامة الاجلاء منه مقرونة بكرامة قتل الانسان نفسه في قوله تعالى : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه ... »

وفكرة الوطن عند الطهطاوي ترافق فكرة الولاء لجماعة المسلمين ولا تتعارض معها فيما يبدو « جميع ما يجب على المؤمن لاخيه المؤمن يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلاً عن الاخوة الدينية فيجب ادباً لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه ... ان اخوة الوطن لها حقوق لا سيما وانها يمكن ان تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره ... وبالجملة فيعامل اخاه بمضمون حديث « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه »[١] .

واذا كانت فكرة الوطن مجاورة لفكرة الجماعة الدينية عند الطهطاوي فانها تبدو صافية خالصة عند اديب اسحق : « لا بدّ لذوي الحياة السياسيّة من وحدة يرجعون اليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً ، وان الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والنزاع فيه ... الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى ان تقول : استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها اي اتخذوها سكنا . وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقّه عليك وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن اقوالهم فيه لا وطن الّا مع الحريّة . فالحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم . فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية وان وجدت فلا بدّ معها من الواجب والحقّ . وهما شعار الاوطان التي تفتدى بالاموال والابدان ، وتقدم على الاهل والخلّان ويبلغ حبّها في التقوى الزكية مقام الوجد والهيمان »[٢] .

ويتبنى محمد عبده هذا التعريف بالوطن وينشره حرفياً ، تقريبا ، في « الوقائع المصرية » في ٢٨ / ١١ / ١٨٨١ مضيفاً اليه بعض الكلمات هنا وهناك منتهياً الى القول : « مما قلناه وجب على المصري حبّ الوطن من كل هذه الوجوه . فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ويشرب مريئاً ويبيت في الأهل اميناً وهو مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعبيراً وهو الان موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما اوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية ... »

بعد هذا التمهيد الفكري جاء مصطفى كامل لينشر الفكرة الوطنية في شباب مصر وجماهيرها فكان كما وصفه الخديوي عباس الثاني في مذكراته : « محيي الوطنية ورسول تلك الفكرة التي كانت قد خنقت في مهدها ... ان فضل مصطفى كامل العظيم هو انه قد جدد المثل الاعلى للامة ، وشجع الجماهير على السعي الى ذلك المثل الاعلى »[٣] . لقد كان مصطفى كامل في حياته وخطبه مدرسة في الوطنية التي هي عنده « اشرف الروابط للافراد والاساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة » فقد عمل على اشعار كل فرد انه شريك في الوطن ومسؤول عن احواله . فقال مخاطباً الطلاب : « ان الوطنية لا تميز فيما بين الصغير والكبير ، والغني والفقير . فكلنا سواء امام الوطن وكل واحد منا مسؤول عن مصائبه . مطالب بخدمته واعلاء قدره »[٤] .

ومفهوم الوطنية عند مصطفى كامل مفهوم ايجابي : « ان محبة الاوطان ليست مما تميل النفس اليه ساعة ثم تنفر منه ساعة . انما الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته »[٥] . والوطن عنده هو وادي النيل ، ما في ذلك شك ، وهو ينظم ابناءه جميعاً من مسلمين واقباط : « كيف يستطيع رجل وطني ان يدعو للشقاق والبغضاء . وهي دعوة مناقضة للوطنية الصحيحة . فالاقباط اخوة لنا تجمعنا بهم اشرف رابطة ، وقد

---

(١) الطهطاوي : « **مناهج الألباب المصرية** » صفحة ١٠ ، ١٥ : ٩٩

(٢) أديب اسحق : « « **الدرر** » ، صفحة ٤٥٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : **مصطفى كامل** ، صفحة ٣٥٢ .

(٤) خطبة مصطفى كامل في باريس ١٨٨٢ ـ الرافعي ، صفحة ١١٧ .

عشنا معهم القرون الطوال على اتم وفاق واكمل اتفاق »[٦] .

وهكذا نجد ان الفكر السياسي خرج في منتصف القرن التاسع عشر من جو العاطفة الدينية والولاء للجامعة العثمانية وتقدم نحو مفهوم الوطنية الاقليمية . فتعايشت الفكرتان الدينية والوطنية زمناً ، جنباً الى جنب ، ثم قويت الفكرة الوطنية قبيل الحرب العالمية الاولى بحيث نجد احمد لطفي السيد ، مثلاً ، يكتب في الجريدة في ١٦/١/ ١٩١٣ « مصريتنا تقضي علينا ان يكون وطننا هو قبلتنا لا نوجه وجهنا شطر غيره » . والوطن عنده قائم على عصبية جنسية : « لا شبهة عند احد منّا في معنى كوننا امة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا ، قد لا يشركنا فيها غيرنا من جميع الامم .لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة ودين للاكثرية واحد ودمّ يكاد يكون واحداً يجري في عروقنا . ووطنا محدود الجهات بحدود طبيعية يفصلنا عن غيرنا (يقصدمصر) .لنا تاريخ قديم طويل .... »[٧] . فهو يدعو لانماء « الجنسية المصريّة » قائلا ان العمل حسب هذه النظرية ليس جديداً في مصر ولن يكون الاّ « لمنفعة المصريين وكل من له الشرف العظيم بالانتساب الى هذا الوطن »[٨] .

هذا تيار جرى في وادي النيل . وهناك تيار اقوى كان يجري في البلدان العربية الواقعة في غربي اسيا عبر عنه في اول سيره عبد الحميد الزهراوي لاحد محرري جديدة « الطان » الفرنسية في حزيران ١٩١٣ بقوله « نحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لاجل الرابطة الدينية ، بل رغبة منا في إيجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل يقف في طريقه واملا بقيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في امورها والدولة العثمانية هي التي تقدر ان تحقق رغباتنا اذا هي عملت بلوازم الاصلاح الذي نحن مصرون على طلبه » .

والمؤتمر العربي الاول الذي انعقد في باريس في حزيران ١٩١٣ وترأسه عبد الغني الزهراوي كان ، كما كتب محمد رشيد رضا « حجة على ان في العرب عقلاء يعرفون مصلحة امتهم ودولتهم . وكان مذكراً للامة العربية في جميع الاقطار بان لها وجوداً قومياً وان لها حقوقاً مهضومة » . فكان يستهدف المؤتمر إذن ، اول ما يستهدف « الاعتراف بحياة العرب الوطنية » وجرى الحديث صراحة عن وجود « اتراك عثمانيين » « وعرب عثمانيين »[٩]. فواضح من هذا ومن كلام المؤتمرين، إذن ،ان فكرة « الامة العربية » كانت قد بدأت تأخذ سبيلها الى عقول الطبقة المستنيرة من العرب . فعبد الغني العريسي يطالب بان يكون للعرب « حق جماعة وحق شعب وحق امة » « فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية : حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة رغما مما كان ينتابنا من حكومة الاستانة »[١٠] .

ولكن العرب ، ورغم ذلك الموقف ، لم يكونوا قد قطعوا الامل نهائيا بعد من استجابة الحكام الاتراك لمطالبهم العربية فكانوا ، لذلك ، حريصين وهم يعلنون وجود الامة العربية ويتحدثون باسمها على نبذ كل حركة من شأنها انفصام العرى بينها وبين الدولة العثمانية و « ترويج اي غاية كانت غير عربية عثمانية في البلاد العربية العثمانية »[١١] .

---

(٦) خطبة مصطفى كامل بالاسكندرية يوليه ١٩٠٠ ـ الرافعي ، صفحة ١٤٩ .
(٧) **الجريدة** : تاريخ ١٩١٣/١/٢ عدد ١٧٦ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) **المؤتمر العربي الاول ـ** القاهرة ١٩١٣ ، طبعة ثالثة ،دار بدران ١٩٦٠ .
(١٠) **ثورة العرب** صفحة ٤٣ ـ ٤٤ .
(١١) **المؤتمر العربي الاول ـ** القاهرة ١٩١٣ صفحة ٩٧ طبعة ثالثة دار بدران سنة ١٩٦٠ .

واستمر هذا الازدواج في الاجتهاد السياسي العربي الى ان اعلن الشريف حسين الثورة العربية على الدولة العثمانية فكتب احد اعضاء الجمعيات العربية السرية يقول: «وليس ذلك الحادث ابن يومه بل هو نتيجة انقلابات طرأت على الافكار في السنوات الاخيرة فحررتها من قيود التعصب الديني وجعلتها تنضم جملة تحت لواء الجامعة القومية والغيرة الوطنية فغيرت بذلك كل اعتقاد سياسي واجتماعي واظهرت للعرب كافة ان اتفاقهم مع الترك كان شرا عليهم لانه لم يكن قائماً على اساس القومية »[١٢] .

اذن ، لقد سبق هذا الموقف التاريخي الحاسم والاختيار الكبير تمهيد فكري طويل . فمن فكرة الوطنيّة تقدم العقل العربي الى الفكرة القومية وعند البحث في تعريف الوطن اضطر الى اتخاذ القومية اساساً له . وقد رأينا كيف اتخذ مصطفى كامل واحمد لطفي السيد « الجنسية المصرية » قاعدة للوطن المصري . الا ان اهتمام العرب المستنيرين في الجمعيات السرية وفي المؤتمرات العربية قبيل الحرب العالمية الاولى انصب على معنى الامة العربية ، وظل « الوطن » غير محدود في اقطار اسيا العربية . واستمر غموض « الوطن » حتى بعد ان جزئت البلاد العربية في اعقاب الحرب العالمية الاولى . فالمجلس التأسيسي السوري ، على سبيل المثال ، المنعقد في دمشق سنة ١٩٢٨ رفض صورة اقتراح اليمين التالية : « اقسم بالله وبشرفي انني مخلص للوطن ومحافظ على حقوق الامة وامانيها » . رفض هذه الصيغة لان « الوطن » مبهم ، كما قال احد اعضاء المجلس البارزين ، ولان « الوطن » الذين يريدون ان يقسموا يمين الاخلاص له غير معروف الى الان . « ان الوطن الذي لا تعرف حدوده حتى الان لا نقسم له يمين الاخلاص » . مما دفع المجلس اخر الامر لتبني صيغة يقسم اليمين فيها على قضية وطنية معروفة : « اقسم بالله وبشرفي ان اكون مخلصاً للقضية الوطنية محافظاً على حقوق الامة عاملاً على تحقيق امانيها »[١٣] .

وبين الحربين اخذت فكرة الوطن العربي الكبير تسيطر على سائر الاوطان الاقليمية او القطرية عند المثقفين العرب. فالمؤتمر الاول للطلاب العرب في اوروبا المنعقد في بروكسل في كانون الثاني من عام ١٩٣٨ قرران الوطن العربي « هو البلاد التي سكنتها وتسكنها اكثرية عربية في اسيا وافريقيا . وهو بهذا الشكل كل لا يقبل التجزئة ولا التقسيم وميراث مقدس لا يمكن التفريط في شبر منه » والعرب « كل من كانوا عرباً في لغتهم وثقافتهم وولائهم (المقصود بالولاء هنا الشعور القومي) فهم العرب ، والعربي هو الفرد المنتمي الى الامة المكونة من هؤلاء . ويعتبر المؤتمر كل ذلك من الاولويات »[١٤] .

ثم تقوى فكرة الوطن العربي الكبير الذي ينتظم البلاد العربية جمعاء في غربي اسيا وشمالي افريقيا وتترسخ وتنتشر . فمؤتمر الطلاب العرب المنعقد في لندن صيف ١٩٤٦ يقرر « العرب في يقظتهم هذه لا يتطلعون الى ما وراء الحدود ولا يطمعون في فتح جديد ، بل جل ما يبتغون هو ان يدعهم العالم احراراً في الارض التي عرّبها اجدادهم من خليج فارس الى جبل طارق ومن اعالي الفرات الى اقاصي اليمن . هذه الارض هي الوطن القومي والقاعدة المادية لحياتهم ، والشعوب والقبائل المتناثرة عليها الناطقة بلغة قريش تؤلف وحدة ثقافية في مجموعة البشر »[١٥]

وسواء كان الوطن اقليميا « خاصا » او قومياً « عاماً » فقد انطوت فكرته على المساواة بين

---

(١٢) **ثورة العرب** . صفحة ٤٣ ـ ٤٤ .
(١٣) المرجع السابق صفحة ٨٠ ـ ٨١ .
(١٤) **االمؤتمر الأول للطلاب العرب** صفحة ٤٤ .
(١٥) **مؤتمر الطلاب العرب في بريطانيا** صفحة ١٤٣ .

المواطنين في المواطنية التامة وعلى عدم وجود طبقة ممتازة وممتازة اخرى اقل امتيازا .

هكذا سيطرت فكرة الوطن القومي العربي الكبير بعد تطور طويل فتأثر بفكرة « الامة العربية » واصبح الوطن تابعا للامة محدداً بها بعد ان كانت الامة تابعة للوطن متكونة به . وهذا بطبيعة الحال امر وثيق الصلة بفكرة « الامة العربية » . فلابد إذن من ان تدرس كيف دخلت هذه الفكرة الوعي العربي واصبحت مرادفاً للوطنية : لا شك ان للعرب وجوداً قديماً ، وانهم كانوا يشعرون في الجاهلية والاسلام انهم أمة من الناس متميزة عن غيرها من الامم . لقد كانوا بنظر أنفسهم أفخر الامم ، وجاء القرآن الكريم يؤيد هذا الاعتقاد بقوله لهم : « كنتم خير أمة اخرجت للناس ... » . ولا شك أيضاً ان هذا الوجود العربي لم يهدم خلال العصور بفضل الدين الاسلامي واللغة العربية وادابها ، ورغم ان الترك حكموا البلاد العربية حوالي اربعماية عام . كان خلالها العرب يؤلفون جزءا من الامبراطورية العثمانية ، الاّ انهم استطاعوا الاحتفاظ بشخصيتهم المميزة . وعند منتصف القرن التاسع عشر وهبوب الرياح القومية من الغرب وانتشار الصحف والمدارس والمعارف ، قامت في سورية حركة تعبر عن احلام العرب وخوالجهم القومية وتلقي في الارض العربية البذور القومية . فاديب اسحاق يلقي خطبة عنوانها « دولة العرب » يقول فيها : « شعلة سرت في الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً » ويقابل العرب الاولين بعرب زمانه داعيا قومه الى الاتحاد مقترحاً اجتماعياً وعربياً يتذاكر فيه العرب شؤونهم ويطالبون بحقوقهم[١٦] .

يقول ساطع الحصري في كتابه « محاضرات في نشوء الفكرة القومية » ان فكرة القومية العربية نشأت عند المفكرين المسيحيين قبل أن تنشأ بين المسلمين . « ... هذه الملاحظات وامثالها كانت تجول في خواطر البعض من العرب المسيحيين الذين تثقفوا بالثقافة الغربية ودرسوا التاريخ الاسلامي بعقلية عصرية . ولا اراني في حاجة الى ايضاح بانها كانت بمثابة البذور الاولى لفكرة القومية العربية الخالصة المتجردة عن الاعتبارات الدينية .

واذا كانت الحركة القومية الوطنية في سورية ، ومعظم القائمين بها مسيحيون ، قد القت بذوراً قومية ونثرت افكاراً قومية في الارض العربية فان الحركة السلفية في الاسلام المجددة مع الافغاني وعبده ورشيد رضا قد وجهت الانظار الى دور العرب في الاسلام وعظمت العرب حين عظمت الاسلام العربي . ورافق هذه الحركة الاهتمام باللغة العربية حتى ان جمال الدين الافغاني تمنى ان يستعرب الاتراك وان يقبلوا اللسان العربي . وتأثر اذ رآهم يرتكبون خطأ فادحاً وهو « جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربي لسان الدين الطاهر باللسان التركي »[١٧] .

وقد افتى محمد رشيد رضا في « المنار » بوجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم : « جميع المجتهدين والقائلين بوجوب الاجتهاد في الدين يجزمون بوجوب معرفة اللغة العربية لان الاجتهاد يتوقف على ذلك كما هو مصرح به في كتب الاصول »[١٨] . وفي اعداد « المنار » الاولى نجد بدء المناظرة

---

(١٦) اديب اسحق ، **الدرر** ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

(١٧) محمد المخزومي ، **خاطرات جمال الدين الافغاني** ، ص ١٥٣ .

(١٨) **المنار** جزء ١٢ صفحة ٩٠٦ ـ ٩٠٧ .

بين العرب والترك حيث يتبنى محمد رشيد رضا قضية العرب ويظهر امتيازهم على الترك في خدمة الاسلام . وعلى صفحات « المنار » اياها نشر الكواكبي كتابه « ام القرى » الذي طالب فيه صراحة بخلافة عربية يكون مركزها الجزيرة العربية لان « لجزيرة العرب ولاهلها بالنظر الى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم »[١٩] .

لقد القى الكواكبي ، فيما القى من افكار ، فكرة الخلافة الروحية ليكون للخليفة العربي سلطة روحية في العالم الاسلامي وسلطة زمنية في الحجاز يعاونه في ذلك مجلس محلي . وكأنه بذلك قد فتح الطريق أمام سياسة مدنية مستقلة تعمل لخير المواطنين دون تمييز طائفي . فكتب في «طبائع الاستبداد» يقول « يا قوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين : ادعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد في سبيل الامة . فهذه امم اوستريا واميركا قد هداها العلم لطرائق واصول راسخة للاتحاد الوطني دون الدين . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط » .

وهكذا تكون حركة الاصلاح والتجديد في الاسلام قد تدرجت في كتابات رضا والكواكبي الى ساحة الامة العربية . او لنقل ان خطين قد تقاطعا في تآليف الكواكبي : خط تجديد الاسلام واحيائه وخط القومية العربية . الاول في نهاية تطوره والثاني في اول بدايته . فتابع نجيب عازوري افكار الكواكبي معطياًاياها تعبيراً اوضح في كتاب نشر بالفرنسية سنة ١٩٠٥ عنوانه « يقظة الامة العربية في آسيا التركية » حيث سجل فيه وعي العرب لتجانسهم القومي التاريخي وفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . ولم يكد يبدأ القرن العشرون حتى كانت فكرة الامة العربية قد وجدت في الجو الفكري ، كما يقولون ، واخذت تنتقل من صفحات المجلات والكتب الى الجمعيات والمؤتمرات واصبحت قوة في عالم الفكر والسياسة والحرب . وقد بدا ذلك واضحاً ايضاً في مناقشات وقررات المؤتمر العربي الاول . فرئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي يصرح عقب انتهاء المؤتمر لمحرر جريدة « الطان » بقوله : « يهمني ان اصرح قبل كل شيء بان المؤتمر ليس له صفة دينية » وفي خطبة ندرة المطران داخل المؤتمر تأكيد على التضامن القومي بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين . « اذا كانت النعرة لجنسية (بمعنى الوطنية) فضيلة اصلية في النفس فلست ادري امة اشد تأثراً بعواملها من الامة العربية »[٢٠] .

وجاءت ثورة العرب على الترك سنة ١٩١٦ معلنة ان العرب ، واكثريتهم مسلمون ، قد اختاروا القومية قاعدة لتنظيم حياتهم السياسية . صحيح ان الشريف حسين اعلن الثورة باسم الدين والقومية جميعاً الا ان الواقع التاريخي هو ان الشريف المسلم العربي ثار على خليفة المسلمين العثماني ، فلم تستطع الرابطة الدينية ، اذن ، ان تتغلب على العصبية العربية في موقف تاريخي حاسم . ففي منشور الثورة يجري نفس عربي كما تجري الحياة في الجسم ، وان اتخذ الاسلام حجة على الترك ففي اخر المنشور اقتباس لحديث شريف أضافت اليه المناسبة خطورة خاصة هو قوله : « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » وقول الشريف ايضاً «وصارت المصلحة الاسلامية والعربية ، وهما متلازمتان ، في مقاومة هذه الفئة الباغية » .

بعد هذا الكلام ارتاح الفكر العربي الى هذه الصيغة ـ الاسلام دين عربي ـ وراح يرددها

---

(١٩) أم القرى : قرار عدد ٦ .
(٢٠) **المؤتمر العربي الأول** . صفحة ٥٨ .

ويعطيها من المعاني ما وسعه الاجتهاد . فقامت دولة في الشام على اساس هذه القوة الجديدة التي اطلقتها الثورة العربية : قوة الفكرة القومية . فكان قيامها بزعامة الفيصل بن الحسين مجالاً لالهاب خيال العرب واستدعائهم افكار الوحدة العربية واعادة بناء دولة العرب . والمؤتمر السوري العام في ظل تلك الدولة كان يمثل « الامة السورية العربية » . وفي القرار الذي اتخذه المؤتمر وتضمن اعلان استقلال سورية في اليوم الثامن من شهر اذار سنة ١٩٢٠ نص على ما يلي : «ان الامة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقحم جمعياتها واحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دم شهدائها الاحرار وتثر على حكومة الاتراك الا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها ذات وجود مستقل وقومية خاصة لها الحق في ان تحكم نفسها بنفسها ... ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك .. وكانت الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر السوري هي ذات الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر العراقي ..... فنحن نطالب باستقلال القطر العراقي استقلالا تاماً على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي اقتصادي »[٢١] .

وقد عبر الملك فيصل في اثناء ملكه القصير في الشام عن نظرية قومية عربية صريحة . فمن المعاني التي كان يرددها في جميع مواقفه ، مثلاً ، قوله : « انا عربي قبل كل شيء . العرب هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد »[٢٢] . او قوله ، ايضاً ،متحدثاً عن أمم الغرب : « يفكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء. وأما باقي سكان البلاد المعمورة فهم يعدونهم غير عرب . ولا شك ان جهلهم هذا جعلني اصرف وقتا طويلا لأفهم هذه الامم الحقيقة ، واثبت ان العرب امة واحدة تقطن في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب ، وتحدها جبال طوروس من الشمال .»[٢٣] .

المهم في الامر ان الملك فيصل سار في حكم الشام سيرة عربية فاضلة منسجمة مع هذه الاقوال . وعاشت هذه الافكار في قلوب العرب وعقولهم . ورغم ان سورية نفسها قد مزقت وسقط الملك العربي في الشام، فقد ظل الفكر العربي يتطلع الى « الوحدة » واشتغل . بطبيعة الحال . كل قطر بمشاكله الخاصة وقامت دعوات اقليمية مختلفة بين الحربين في الدول المستحدثة في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لكن فكرة القومية العربية كانت الغالبة وقادت العرب في اواخر الحرب العالمية الثانية الى تأليف جامعة الدول العربية .

واخذ الفكر السياسي العربي في هذه الفترة بين الحربين يوضح معنى القومية العربية ويحاول تعريفها وتحديدها ويبحث في عواملها وعناصرها . وقد خاض المفكرون العرب في هذه الموضوعات لارضاء رغبة فكرية ملحة عند الناشئين والمثقفين من العرب للتعرف الى ذاتهم وتبيان معالم شخصيتهم القومية ، وليدافعوا ثانيا ، عن القومية العربية ضد هجمات المذاهب القومية ذات الطابع المحلي او الاقليمي . ويميزوا . ثالثا . بين القومية العربية وبين العصبية الدينية . ولا شك ان مفكري هذه الحقبة قد ساعدوا على انماء الوعي القومي الوطني فيما كتبوا وقالوا . فقد بحثوا في العوامل المكونة للامة العربية . فذكروا اللغة والدين والثقافة والتاريخ والوحدة الجغرافية

---

(٢١) ساطع الحصري : **يوم ميسلون** . صفحة ٢٦٥ .
(٢٢) المرجع السابق : الطبعة الثانية صفحة ١٩٨ : خطاب فيصل في حلب في ١١ ١١ ١٩١٨
(٢٣) المرجع السابق صفحة ٢٠٤ خطاب في دمشق ٥ ٥ ١٩١٩ .

والعادات المشتركة والمصالح المشتركة الخ ... ومنهم من اكد على اللغة ، ومنهم على اللغة والتاريخ . كذلك بحثوا في اشكال التعاون العربي ، وهل يتخذ صيغة « الوحدة » أو « الاتحاد » أو « الحلف » . ثم قبلت اكثريتهم صيغة جامعة الدول العربية لفترة من الزمن ومرحلة من المراحل . وكان وراء هذه الابحاث كلها تقبل للفكرة الكبيرة وهي ان العرب في جميع اقطارهم يؤلفون امة واحدة. وقد لخص امين الريحاني ذلك الاتجاه في المقدمة التي كتبها لكتاب المؤتمر العربي القومي في بلودان سنة ١٩٣٧ عن القضية الفلسطينية وامّها القضية العربية فقال : « ومؤتمر بلودان هو النصب الاعلى في طريق هذه القضية القومية السياسية . بل هو النصب الانور ذو الافق الابعد في تاريخا . تقيمه الامة العربية دليلا واضحاً على ما اجتازته حتى اليوم ، ونبأ صادحاً بغرضها الاكبر في جهادها الحديث . وهذا الغرض ينطوي على ثلاثة اغراض : اولها انقاذ فلسطين من الصهيونية والصهيونيين وتحريرها من قبضة المستعمرين . **وثانيها** تحرير الاقطار العربية الاخرى التي لا تزال تحت سيطرة الاجانب السياسية . اما الغرض الثالث والاهم فهو التوحيد توحيد الاقطار جميعاً بالشكل الذي تمكن منه الاحوال وتطوراتها »[٢٤] .

وبعد قيام جامعة الدول العربية اخذ المفكرون العرب يتطلعون الى نموها وتقويتها . وبما ان الفكر العربي لم يتبع في تسلسله نظاماً مغلقاً قائماً بذاته مستقلاً عن الفكر السائد في الغرب . فقد راينا ونرى اليوم ، كيف ان المفاهيم والافكار الرئيسية التي سادت في القرن التاسع عشر في اوروبا . لا تزال تتفاعل عندنا ، بقدر او بأخر ، لا سيما فيما يخص التركيز على مفاهيم « الوطنية » و « القومية » على اسس ثابتة وغير قابلة للجدل .

لقد كان الحديث اول الامر طبيعياً يجري وينحدر من التاريخ العربي وينبع من الواقع العربي . كان الحديث اولاً عن « الوطن » ثم « الوطن العربي » ، ثم عن « الامة العربية » و « العرب » . ثم بالتجريد تحولت « الامة العربية » الى « القومية العربية » وتحولت « القومية العربية » الى مذهب عقائدي « ايديولوجي » فكان هذا التحول في طريقة التفكير والشعور في غاية الاهمية لانه كانت له نتائج بعيدة المدى . ولا ينبغي ان يفهم من هذا ان القومية العربية كمذهب عقائدي قد طغى على الامة العربية ونسخها ، فالامة العربية وجود والوجود لا يلغى بالنظريات . والقومية العربية بمعناها الاصيل مفهوم ينطبق على حقيقة في الواقع ، وكيان . فالقومية العربية مفهوم صحيح بقدر ما يعبر عن وجود الامة العربية واستمرارها .

وفي البدء ايضاً كانت الفكرةالعربية شيئاً والنظام الاقتصادي والاجتماعي شيئاً اخر . ثم اختلطت هذه الامور واضطرب التفكير فيها بحيث اصبحت بعض العقائد المرافقة للقومية العربية وبعض السياسات مناقضة لمعنى الامة العربية الواحدة . ولم يكن هناك خلاف جدّي حول الامة العربية كوجود . وانما نشأت الخلافات الحادة بين التعاريف المختلفة لمحتوى القومية العربية كنظرية ، وكمذهب عقائدي .

من هنا نلاحظ ان مفهوم « الوطنية » الذي اصبح فيما بعد مرادفاً لمفهوم « القومية » بقي محافظاً ، خلال التطور في مفاهيمه ، على الطابع الوطني العربي الهادف الى جمع شمل العرب وتوحيد كلمتهم بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والاقليمية . ولا عجب بذلك لان هذه الفكرة كانت

---

(٢٤) **المؤتمر العربي القومي** . صفحة ٦٣ .

قد تغلغلت في قلوب الناس وعقولهم فاصبحت قوة مادية لهـا وجود مستقل ، او وجود « مجرد » ، ان صح التعبير ، قد لا نرى ، لاول وهلة ، بين ما نسميه « الشعور الوطني » وبين الظروف والافكار التي يتألف منها اية صلة ولكن الحقيقة ان هذا الشعور الوطني هو نفسه الذي اصبح الان قوة مادية فعلية يحاول التغلب على اشد القوى المادية فتكاً ، ويحاول ان يبحث عن احدى الصيغ الحضارية التي يتطلبها المواطن العربي ، في اي قطر كان ، ليحدث بها سوية نفسية بالتوازن بين قدراته وطموحاته . والخوف الان في الا يجد المواطن الواعي التعابير التي تتلاءم مع ذهنيته ، فيضعف ايمانه وتلتبس بذهنه الفكرة الوطنية نفسها فيتجه الى مجرد الرفض للرفض ، بل قد ينزلق نحو موقف سلبي ليعبر به عن المحنة النفسية التي يكون قد بدأ يعانيها . لهذا فان المطلوب الان من جميع الاخوان في الوطن العربي ، على اختلاف احزابهم ومذاهبهم ، وفي هذه المرحلة بالذات من التفتيش والتنقيب عن صيغ حضارية متجددة ، ان لا يبلغوا في تأييد ارائهم ومذاهبهم الفكرية مبلغ التعصب الظالم . وان يضعوا نصب اعينهم هذا القول للعلامة العربي ابن خلدون في مقدمته الشهيرة : « ان النفس ، اذا كانت في حالة الاعتدال في قبول الخير ، اعطته حقه من التمحيص والنظر ، حتى تتبين صدقه من كذبه . واذا خامرها تشيع لرأي ونحلة ، قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص » . فيعتمدوا بدورهم هذا القول الحكيم لان الوطنية اضحت اليوم فهماً عقلانيا للامور ، وممارسات مستقيمة وجدية لها .